

سُورَةُ طٰهٍ

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ .

﴿ طه ﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة، وعليه الجمهور، وعن ابن عباس معناها يا محمد، وقيل معناها يارجل لأنه لما نزل الوحي عليه، اجتهد في العبادة حتى كان يراوح في الصلاة بين قدميه لطول قيامه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره أن يخفف على نفسه.

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ أي ما أنزلناه لتتعب نفسك، وتحملها على الرياضة الشاقة، والشقاء شائع في معنى التعب، أو لتتعب نفسك بالمبالغة في مكابدة الشدائد، في محاوراة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم، بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلت فلا عليك كفرهم.

﴿ إِلَّا نَذِكْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ إِلَّا نَذِكْرَةً ﴾ استثناء منقطع، أي لكن أنزلناه تذكرة ﴿ لِّمَنْ يَخْشَى ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة، ويتأثر بالإنذار، وتخصيصها بهم لأنهم المنتفعون بها.

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ .

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسموات العالية، والعلی جمع العليا تأتيث الأعلى، وصف السماوات به لتأكيد الفخامة، مع مراعاة الفواصل .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أي هو الرحمن، فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية، للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى، وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته، كما في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي هو جلّ وعلا العظيم الشأن، الذي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء، والسحاب، والطيور، أي له وحده دون غيره كل ذلك، ملكاً وتصرفاً، وإحياء، وإماتة ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ أي ما وراء التراب، ذكره مع دخوله في قوله ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ لزيادة التقرير، والثرى: التراب الندي فإن لم يكن ندياً فهو تراب .

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ .

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته لجميع الكائنات، أي وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي ما أسرته إلى غيرك، أو ما أخطرته بيالك، وأخفى منه، وفيه تنبيه على أن شرع الذكر

والدعاء، والجهر فيهما، ليس لإعلام الله تعالى، بل لغرض آخر، من تهذيب النفس بالذكر، ومنعها عن الاشتغال بالتوافه، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٨)

﴿ اللَّهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك المنعوت بما ذكر هو الله عز وجل ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو واحد بذاته، وإن افرقت صفاته، رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا الله، يا رحمن، قالوا ينهانا محمد أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، وهذا رد لقولهم الفاجر، ثم قال: ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن، لدلالاتها على معاني هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (٩)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾؟ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وهذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وهذا قول الكلبي، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: قد أتاك، وهذا قول مقاتل.

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾ (١٠)

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً، رُوي أن موسى عليه السلام، استأذن شعبياً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر، ليزور والدته وأخاه، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها، لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى

جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة شاتية، شديدة البرد، فأخذ امرأته الطلق، فولدت له ابناً، وتفرقت ماشيته فجعل يقده زنده فلا يوري، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من جانب الطور وكانت نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ آمْكُثُوا﴾ أي أقيموا مكانكم، أمرهم بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه، والخطاب للمرأة، والجمع للتفخيم، ﴿إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها والإيناس: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَعَلِّي ءَأِينِكُمْ مِّنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار، بني الأمر على الرجاء، لئلا يعد بما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبْسٍ﴾ نار مقتبسة، وهي المراد بالجدوة في سورة القصص، والقَبْسُ: بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

﴿فَلَمَّا أَنهَا نُوْدَىٰ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾ أي النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقد في شجرة خضراء، ولم يجد عندها أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النارُ تعيّرُ خضرتها، ولا خضرةُ الشجرة تُعيّرُ ضوءَ النار، فلما دنا سمع تسبيح الملائكة، وألقيت عليه السكينة، فعند ذلك ﴿نُوْدَىٰ يَمْوَسَىٰ﴾ .

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ كَرَّرَ الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلم؟ فقال: أنا ربك، فعرف أنه كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه سَمِعَهُ من جميع جهاته الست، وسَمِعَهُ بجميع أعضائه، وذلك ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره سبحانه بذلك، لأن الحفوة تواضعٌ وأدب، ولذلك كان السلف يطوفون بالكعبة حفاة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لشرف البقعة وقدسيتها، روي أنه

عليه السلام خلعها وألقاها وراء الوادي ﴿طَوَى﴾ وهو اسم علم للوادي ومعناه: بالواد المقدس، المسمى طوى، أي جبل الطور.

﴿وَأَنَا أَخَّرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٣).

﴿وَأَنَا أَخَّرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، وهذا يدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق، بل باختياره تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي للذي يُوحى إليك، وفيه نهاية الهيبة والجلال، كأنه قيل له: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهب له.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤).

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ بدل ما يوحى، ولا ريب في أن اختياره ليس لهذا الوحي فقط ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وخذني وأطعني، ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ خُصت الصلاة بالذكر، وأفردت بالأمر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة، لفضلها وشرفها، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد، أعظم من الصلاة، أي حافظ على الصلاة، وأقمها على الوجه المشروع لتذكركي فيها، وتبقى دائم الصلاة بربك، قال مجاهد: إذا صلى العبد ذكر ربه لاشتمالها على جملة الأذكار وقيل: معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، لما روي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً فليصلها إذا ذكرها، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»^(١). قال أبو حنيفة: يجب الترتيب في قضاء الفوائت، ودليله هذه الآية.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٣٢٤٨ وهو طرف من حديث طويل في قصة رجوع النبي ﷺ من غزوة خيبر، ونوم الصحابة عن صلاة الفجر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١٩٣/٥.

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ ﴾ أي القيامة كائنة لا محالة، وإنما عبر عنها بالإتيان، تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، قيل: معناه قَرَبَ الأَمْرُ من الإخفاء^(١) ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض، أي لتجزى كل نفس بسعيها، من خير أو شر.

﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ فَلَا يَصُدُّكَ ﴾ أي فلا يصرفك ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعة، وعن تصديقها، والخطاب لموسى عليه السلام والمراد به أمته ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي من لا يصدق بها، وهذا - وإن كان بحسب الظاهر - نهياً للكافر لكنه في الحقيقة نهى له عليه السلام، عن الانصداد عنها، كقوله: لا أرينك ههنا، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإن ذلك سببٌ لصددهم إياه، كأنه قيل: لا تكن رخوياً، بل كن في الدين شديداً وصلباً، فإنَّ صدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعف الإيمان، فينبغي للمؤمن أن يكون راسخاً في دينه ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه، من اللذات الحسية الفانية ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك، فإن اتباع الهوى مستتبع للهلاك لا محالة.

(١) الأظهر كما قال جهايزة المفسرين أن المعنى: إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس، واختاره الإمام الطبري وهو الأظهر والأوضح، لأن «كاد» للمقاربة، قال المبرد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته حتى عن نفسي، اهـ.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ما استفهامية تتضمن استيقاظاً لما سيظهر فيها من العجائب، فمن أراد أن يظهر من الشيء الحقير، شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على السامعين، ويقول لهم: هذا الشيء الفلاني، ثم إنه يظهر لهم صفته الفائقة، ليكون عندهم أروع وأبهر، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ نسبها إلى نفسه، تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياء ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أي أخطب بها الورق وأسقطه على رؤوس غنمي فترعاه ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي حاجات أخرى غير ذلك، وأراد بها ما كان يستعمل فيه العصا في السفر، كأن يحمل بها الزاد، ويشدُّ بها الحبل، ويستقي بها الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ونحو ذلك، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال، بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة، علم أنها آيات ومعجزات، أحدثها الله تعالى فذكر على التفصيل، وقيل: إنما فصل ذلك تلذذاً بخطاب رب الأرباب، والمقام مقام مباشرة، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَلْقَهَا يَا مُوسَىٰ ﴾ لترى شأنها بما لم يخطر ببالك.

﴿فَالْقَنَهَا﴾ على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جاناً تارة، وهي الحية الصغيرة، نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة وهو أكبر ما يكون من الحيات باعتبار المنتهى، وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين، وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة والسرعة، لا في صغر الجثة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه عليه السلام لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها، والحكمة فيها لتكون معجزة لموسى عليه السلام ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي هيئتها، المتقدمة، أي سعيدها عصا كما كانت.

﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى﴾.

﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أمر عليه السلام بذلك، بعدما أخذ الحية، أي أدخلها تحت عضدك، فإن جناحي الإنسان جنباه، كما أن جناحي العسكر ناحيته، مستعار من جناحي الطائر، وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وفي آية أخرى ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان كمن قد ضم يده إلى جناحه ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير عيب وقبح، كئى به عن البرص، كما كئى بالسوأة عن العورة، لما أن الطباع تعافه وتفر عنه، روي أنه عليه السلام كان آدم يعني أسمر اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها نور ساطع يضيء كشمس، ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ أي معجزة أخرى، دالة على صدقك سوى العصا.

﴿ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ أي لنريك بعض آياتنا الكبرى .

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذهب بهاتين الآيتين، إلى فرعون الجبار، فادعه إلى عبادتي، وحذره نعمتي ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ تعليل للأمر، أي جاوز الحد في التكبر، والعُتُوّ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وإنما خص فرعون بالذكر، مع أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، لأنه كان متبوعاً .

فلما أمر بما أمر به، وعرف أنه كلف بأمر عظيم، يحتاج إلى صدر فسيح، تضرع إلى ربه . فقال :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ سأله أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الحق، وأحوال الخلق، حلماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره، ويتلقاها بصدر فسيح .

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وسأله أن يسهل عليه أمره، الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع .

﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام لُكْنَةٌ^(١)، من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذات يوم، فأخذ لحيته ففتنها فغضب، فتشاءم منه وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا

(١) لُكْنَةٌ: أي عِيٌّ وثِقْلٌ في اللسان، يصعب معه الإفصاح في الكلام .

يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرهما بين يديه، فأخذ الجمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، وصارت فيه عقدة.

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨)

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي كي يفقهوا قولي، أي يفهموا كلامي.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩)

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلفته.

﴿هَارُونَ أَخِي﴾ (٣٠)

﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان لوزير ﴿أَخِي﴾ بدل من هارون، وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً.

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١)

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ أي قوَّ به ظهري.

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢)

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ واجعله شريكى في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

﴿كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣)

﴿كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير، وليس المراد بالتسبيح والذكر، ما

يكون منهما بالقلب، وفي الخلوات، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، وذلك مما لا ريب في تأثيره، في حالي التعدد والانفراد، ولفظ ﴿كثيراً﴾ في الموضوعين نعتٌ لمصدر محذوف، أي ننزهك عما لا يليق بك، من ادعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك، من صفات الكمال، تنزيهاً كثيراً.

﴿وَنَذْرَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤).

﴿وَنَذْرَكَ كَثِيرًا﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً، من جملة زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، لنخلص من شره وطغيانه.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٥).

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا، وما دعوناك به يصلحنا ويفيدنا، في تحقيق كلفته من إقامة الرسالة.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦).

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ﴾ أي أعطيت ﴿سُؤْلَكَ﴾ أي مسؤلك والمراد بالإيتاء تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له البتة، فكلها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها مترقياً بعد، كتيسر الأمر، وشد الأزر ﴿يَا مُوسَى﴾ تشريف له بشرف الخطاب، إثر تشريفه بقبول الدعاء.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (٣٧).

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، وذكرُ تلك النعم بلفظ المنة، ليعرف

موسى أنها بمحض الكرم والإحسان، وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي في وقت غير هذا الوقت.

﴿ إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ المراد بالإيحاء الإيحاء بواسطة المَلَك كما أوحى إلى مريم، أو بالإلهام كالإيحاء إلى النحل، أو الإراءة في المنام ﴿مَا يُوحَى﴾ ما سيأتي، من الأمر بقذفه في التابوت، وقذفه في البحر، أُوهِمَ أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه، ثم فُسِّر ليكون أقرَّ عند النفس.

﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ أي بأن أقذفه، ومعنى القذف هنا: الوضع، وأما في قوله تعالى: ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فالمراد الإلقاء في البحر، وهذا التفضيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ لا القذف بلا تابوت. ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل، أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه عاقل مطيع، أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر للمكلف بالتنفيذ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُمْ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير «العدو» للمبالغة، والإشعار بأن عداوته له، مع تحقيقها لا تؤثر فيه، وما هو سبب للهلاك صورة، يشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوري، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً ووضعته فيه ثم قيَّرتَه أي طلته بالزفت وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير، فدفعه الماء إليه، فأتى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا الصندوق فإذا فيه صبي من

أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ التنكير للتفخيم أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، ولذلك أحبك عدو الله ﴿وَلِنُصَنِّعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره وألقيت عليك محبة لتحب وتصنع ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ أي لتربي بمرأى مني، بحفظي ورعايتي، فأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعى الرجل بعينه إذا اعتنى به.

﴿إِذ تَمْشِي أُمَّتُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّكَ فَتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يٰمُوسَىٰ﴾.

﴿إِذ تَمْشِي أُمَّتُكَ﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أترك حتى تصل إلى قصر فرعون. ﴿فَنَقُولُ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبوله ثديها، يروى أنه فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل، لا يرتضع ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أخته لتعرف خبره، فجاءتهم متكررة فقالت: هل أدلكم على امرأة أمينة ترضعه لكم؟ فجاءت بأمه فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: إنا رادوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور، المعبر عنه بقرة العين ﴿وَقَلَّتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي الكافر الذي استغاثه الإسرائيلي عليه قيل: كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفاً من اقتصاص فرعون، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ﴿وَفَنَّكَ فَتُونًا﴾ أي ابتلينك ابتلاء وخلصناك مرة بعد أخرى من ضروب الابتلاء والامتحان، منها نجاته من الذبح، ثم إلقاءه في البحر، ثم أخذ لحية فرعون، ثم قتل القبطي، ثم الهجرة، وكلها

ضروب من الابتلاء ﴿فَلَيْتَ﴾ مكثت عشر ﴿سَيْنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيها النداء، وفي كلمة «ثم» إيذان بأن مجيئه عليه السلام، كان بعد ضلال الطريق، وتفرق الغنم، في الليلة المظلمة، وغير ذلك ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أي على تقدير قدرته لأن أكلمك، وأستنبكك، في وقت قد عينته لذلك ﴿بِمُوسَى﴾ تشریف له وتنبیه على انتهاء الحكاية.

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ تذكير لقوله ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون، مؤيداً بأخيه بعد تذكير المنز السابق، أي اصطفتك برسالاتي وبكلامي.

﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تُنْيَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي وليذهب أخوك معك حسبما طلبت ﴿بِآيَاتِي﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها من اليد، والعصا، ﴿وَلَا تُنْيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصّرا، والوئى: هو الفتور والتقصير ﴿فِي ذِكْرِي﴾ عند تبليغ رسالتي، فإن الذكر يقع على جميع العبادات، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمدا بذكري العون والتأييد.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جمعهما مع غيبة هارون، للتغليب، روي أنه تعالى أوحى إلى هارون بمصر، أن يلتقي بموسى عليهما السلام، ويذهبا إلى فرعون الطاغية الجبار.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ أي قولاً لفرعون قولاً لطيفاً رقيقاً، لأن تليين القول، مما يكسِرُ سورة عناد العُتاة، ويلين عريكة الطغاة، ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغبتاه فيه ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ عقابي، والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ (١) الآية.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥).

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب، إيذاناً بأصالته في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام له ﴿أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا﴾ أي يعجّل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة، وإظهار المعجزة، والفرطُ بفتحيتين: المتقدم في طلب الماء، والإفراطُ: الإسرافُ وتجاوز الحد ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أي يزداد طغياناً فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لجرأته وقساوته وفجوره.

﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦).

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا نَخَافُ﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿إِنَّنِي مَعَكُمْ﴾ تسلية لهما، والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأنا حافظ لكما من شره، والحافظ إذا كان كذلك تم الحفظ.

﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (٤٧).

(١) سورة طه، آية: ١٣٤.

﴿ فَأَيَّاهُ ﴾ أي اذهبا فادخلا عليه بأمرى ﴿ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، وليس المراد بتكليفهم أن يذهبوا معهما إلى بلد آخر ﴿ وَلَا تَعَذِّبَهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا من العذاب، فإنهم كانوا في أيدي القبط، يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، ويستخدمون نساءهم ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتَةٍ مِّنْ رَبِّكَ ﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿ وَأَسَلْنَاكَ ﴾ المستتبع لسلامة الدارين ﴿ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ﴾ بتصديق آيات الله تعالى، الهادية إلى الحق، وليس المراد منه «سلام التحية» بل معناه السلامة على من أسلم واتبع الحق، وفيه ترغيب في اتباعهما على أطف وجه .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من جهة ربنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ ﴾ بآيات الله وبالرسل ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف في الوعيد ما لا يخفى، حيث لم يصرح بحلول العذاب به .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون بعدما أتياه وبلغاه ما أمرا به ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴾؟ لم يصف الرب إلى نفسه لغاية عتوه، بل أضافه إليهما، لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل، بأن قالوا: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كما وقع في سورة الشعراء، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق، أي إذا كنتما رسولني ربكما، فأخبراني من ربكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما، لما أنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مجيباً له ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ لم يريدنا بضمير المتكلم أنفسهما فقط، حسبما أراد اللعين، بل جميع المخلوقات، أي أعطاه صورته وشكله اللائق، بما نيظ به من الخواص والمنافع، فخلق اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، ونحو ذلك، واستدل عليه السلام على إثبات الصانع، بأحوال المخلوقات، فإنه تعالى خلق الخلق، وأتقن الصنعة، حيث أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي إليه ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي هداه إلى طريق الانتفاع بما أعطاه، وعرفه كيف يتوصل إلى بقاءه وكماله، إما اختيارياً كما في الحيوانات، أو طبعاً كما في الجمادات والنباتات، ولما كان الخلق متقدماً على الهداية، وسَطَ بينهما كلمة التراخي ﴿ ثُمَّ ﴾ ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بين أنه تعالى عالم، قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعم عليها بجميع ما يليق بها، بطريق التفضل، ولذلك بهت الذي كفر، وخاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته، فأراد أن يصرفه إلى ما لا يعنيه بطريق المغالطة.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم من الحوادث مما لا دخل له بمنصب الرسالة، فلم يلتفت موسى عليه السلام، إلى ذلك الحديث، بل قال:

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾

أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطئ ابتداءً، ولا يذهب عليه بقاء، بل هو ثابت أبداً في اللوح المحفوظ وليس لحاجته تعالى في العلم به إليه.

ولقد أجاب عليه السلام بجوابٍ عبقرى بديع، حيث كشف حقيقة الحق، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده، من بيان شؤونه تعالى، ثم تخلص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله تعالى، ما يثبت الألوهية والربوبية فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۝﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعلها كالمهد تمتهدونها، وتستقرون عليها، وهو مصدر سمي به المفعول، أي جعل كل موضع مهذاً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طريقاً بين الجبال، والأودية، والبراري، تسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل لكم من السماء المطر عذبا فراتا، أحيأ به العباد والبلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي فأخرجنا بهذا المطر الذي أنزلناه من السماء، وإنما التفت إلى التكلم، للتنبيه على ما فيه، من الدلالة على كمال القدرة، والحكمة، والإيدان بأنه لا يتأدى إلا من قادرٍ، مُطاعٍ، عظيم الشأن، تنقاد لأمره الأشياء ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض ﴿مِّنْ نَّبَاتٍ﴾ أي أنواعاً من النباتات المختلفة في أشكالها وأنواعها ﴿شَتَّى﴾ أي متفرقة يعني أنها مختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، والنفع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝﴾

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا منه أصناف النباتات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين بذلك لكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في شؤونه تعالى وأفعاله ﴿لآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي آيات كثيرة جليلة، واضحة الدلالة، على شؤون الله تعالى: ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ جمع نُهْيَةٌ^(١)، سُمِّيَ به العقلُ، لعقله ونهيه عن اتباع الباطل، وتخصيص كونها آيات بهم، باعتبار أنهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام وقيل: خلقنا أبدانكم من النطفة، المتولدة من الأغذية الحاصلة من الأرض بوسائط ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ بتأليف أجزاءكم المتفتتة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾.

﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بها، وتفخيم شأنها، أي وبالله لقد أبصرنا فرعون ﴿آيَاتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ كما أظهر له أموراً أخرى ﴿كُلَّهَا﴾ أي أريناه جميع الآيات بحيث لم يبق له في ذلك عذر ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى عليه السلام، بعد ما شاهد الآيات، جوراً وعناداً ﴿وَأَبَى﴾ من الإيمان والطاعة.

(١) النُهْيَةُ: العقلُ جمعها نُهْيٌ مثل مُدْيَةٌ ومُدَى.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَا مُوسَى ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا ﴾ الهمزة لإنكار الواقع، والمجيء لدعوتنا إلى ربك أي أجئتنا بعدما غبت عنا، وأقبلت علينا ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من مصر ﴿ بِسِحْرِكِ ﴾ بما أظهرته من السحر ﴿ يَا مُوسَى ﴾ وهذا دليل على أنه خاف منه عليه السلام، وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل، بل إخراج القبط من وطنهم، وحياسة أموالهم وأملآكهم، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمى ما أظهره من المعجزات «سحراً» لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ۗ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ اللام جواب القسم كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتيتك بسحرٍ مثل سحرك ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي وعداً ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴾ وإنما فوّض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السلام، للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، ولإظهار الجلادة ﴿ مَكَانًا سَوِيًّا ﴾ بالضم أي وسطاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، أي مكاناً وسطاً مستويّاً، حتى يشاهده كلُّ الحاضرين^(١).

(١) هذا ما اختاره الإمام ابن جرير الطبري، أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي مسافته على الفريقين، واختار ابن كثير أن معنى: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ أي بمكان معيّن، ووقت معيّن.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ أي موعدنا للاجتماع في يوم العيد، وكان يوم عيد لهم، يزينون فيه الأحياء والدور، وهو يوم النيروز، وإنما عَيَّنَه ليظهر الحق، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين الناس، لأنه عليه السلام كان على ثقة من أمره، وعدم مبالاته بهم ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي وقت الضحوة، ليكون أبعد من الريبة، وأبين لكشف الحق.

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يكيد به من السحرة، وكانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي، ﴿ ثُمَّ ﴾ إيماؤه إلى أنه لم يسارع إليه، بل بعد تلعم.

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ ﴾ أي قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيَلِكُمْ لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن تدعوا آيات الله تعالى سحراً، كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ فيهلككم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ أي هائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، كائناً من كان، أو وقد خاب فرعون المفتري، فلا تكونوا مثله في الخيبة، وفيه تعريض بفرعون الجبار، المدعي للألوهية، والمفتري على الله.

﴿ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ فَتَنَزَعُوا ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه فتنازعوا ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ الذي أريد منهم، من مغالبتة عليه السلام، وتشاوروا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ في كيفية المعارضة ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ أي من موسى عليه السلام، وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى:

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض سراً ﴿ إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ ﴾ تفسير لنتيجة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ أي أن يغلبا عليكم بطريق السحر، وكأن السحرة تلقفوا هذه من فرعون ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، يظهرا دينهما عليكم، يريدون به ما كان عليه قوم فرعون، ويسمونه ديناً لقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾، «والمثلى» تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

﴿ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ تصريح بالمطلوب أي إذا كان الأمر كذلك، فأزمعوا كيدكم، واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف واحد منكم ﴿ ثُمَّ أَتَوُا صَفَاً ﴾ أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائيين ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴾ أي قد فاز بالمطلوب من غلب، قالوه حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة، للانتصار على موسى.

﴿ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمًا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمًا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِحِيلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا سَعَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمًا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمًا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِحِيلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا سَعَىٰ ﴾ الفاء فصيحة، معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء، أي فألقوا فإذا جبالهم تتحرك وتسعى على بطونها، حتى يظنها موسى من عظمة السحر، أنها حيات تسعى، وإنما خيروه ببدئهم أو بدئه، لثقتهم بالغلبة عليه، لأنهم كانوا قد برعوا ومهروا في السحر.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ الإيجاس: استشعارُ الخوف، أي وجد في نفسه خوفاً، بمقتضى الطبيعة البشرية، المجبولة على النفرة من الحيات.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي لا تخف مما توهمت ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي فإنك أنت المنتصر الغالب.

﴿ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صَنَعُوا كِيدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ أي ألقى عصاك التي يمينك، وإنما أوتر الإبهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيداناً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة ﴿ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا ﴾ بالجزم جواباً للأمر أي تبتلع ما صنعوه من السحر، من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير،

والعربُ تقول في الكذب: هو كلام مصنوع ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ﴾ أي إنما افعلوه هو من باب السعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس، لأن السحر صنعة خسيسة ﴿حَيْثُ أَقْبَلُ﴾ أي حيث كان، وأين أقبل.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ أي فخرُوا سجداً لله رب العالمين حين رأوا تلك الآية الباهرة، وأشهروا إيمانهم بالله.

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبِنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ﴾ أي قبل أن أسمح لكم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، فلذلك غلبكم، فهذه شبهة زورها للعين، وألقاها على قومه، لَمَّا اعتراه الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبِنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها، وإيثار كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ﴾ يريد فرعون نفسه، ورب موسى الذي آمنوا به ﴿عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي أدوم، فإن قيل: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية، كيف يعقل أن يهدد السحرة؟ قلنا: إنه كان في أشد الخوف في قلبه، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة تمشية لملكه، وترويجاً لأمره، فإن كثيراً من العجزة، قد يفعل أمثال هذه التهديدات الفارغة.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَنَّكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ غير مكثرئين بوعيده ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا ﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ مِنْ أَلْبَيِّنَاتِ ﴾ من المعجزات الظاهرة، فإن ما ظهر من العصا، كان مشتملاً على معجزات جمّة، فإنهم عارفون بجلالها ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أي لن نُؤْتِرَكَ وحقّ الذي فطرنا، وهو قسم بعزة الله وجلاله ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ جواب عن تهديده أي فاصنع ما أنت صانعه بنا ﴿ إِنَّمَا نَقْضِي ﴾ تعليل لعدم المبالاة بوعيده، أي إنما ينفذ حكمك في ﴿ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وهي فانية زائلة، ورجبتنا في النعيم الدائم.

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا ﴾ أي آما بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه، بإكراهك لنا، وحشرنا من المدائن القاصية ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أي في حد ذاته ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي جزاء وثواباً، وهذا جواب لقوله ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ يَاتِ رَبِّهِمْ مَجْرِمًا فَانِ لَّهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ يَاتِ رَبِّهِمْ مَجْرِمًا ﴾ بأن مات على الكفر أو المعاصي ﴿ فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فينتهي عذابه ﴿ وَلَا يَحْيَى ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ به تعالى، وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿ قَدْ ﴾

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴿ في الدنيا ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات ﴿ هُمْ ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿ أَلَدْرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أي المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان، المجرد عن العمل الصالح، في استتباع الثواب، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة، هو الفوز بالدرجات العلى، لا بالثواب مطلقاً، وهل الشَّاجِرُ إلا فيه، فسائر الدرجات لا بد أن تكون لغيرهم من أهل الإيمان.

﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ .

﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من الدرجات ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين في الجنان على الدوام ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أوتي لهم ﴿ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي، بالإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقي، وقيل: هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ طوى في البين ذكر ما جرى عليهم، من الآيات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، بعد ما غلب السحرة في نحو من عشرين سنة، حسبما فصل في سورة الأعراف ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ والتعبير عنهم بكونهم عباداً له تعالى، لإظهار الرحمة، والاعتناء بأمرهم، أي وبالله لقد أوحينا إليه أن أسر بعبادي من مصر ليلاً ﴿ فَاصْرَبْ لَهُمْ ﴾ أي فاتخذ لهم ﴿ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أي يابساً مصدر وصف به الفاعل للمبالغة، أي يابساً ليس فيه ماء ولا طين ﴿ لَا تَخَفْ دَرَكًا ﴾ أي آمننا من أن

يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ الغرق، وتقديم نفي الخوف، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه، حيث قالوا إننا لمدركون^(١).

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أي تبعهم بجنوده، روي أن موسى خرج بهم أول الليلة، فأخبر فرعون بذلك، فأتبعهم بعساكره، فلحقهم بحيث تراءى الجمعان، وقال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كالطود العظيم، فعبر موسى بمن معه سالمين، وتبعهم فرعون مع جنوده ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره، وهو من جوامع الكلم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى﴾ ﴿٧٩﴾.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أذاهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا ﴿وَمَا هَدَى﴾ أي وما أرشدهم قط، ولا هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله الفاجر: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن قيل: كيف اختار فرعون إلقاء نفسه وعسكره إلى التهلكة؟ قيل: إن جبريل عليه السلام كان على فرس، فتبعه فرس فرعون، وهذا بعيد لأن الملك لا يخوض في أمثال هذه المواضع، بل الأولى أن يُقال: غلب على ظنه السلامة، فأمر بالدخول في البحر.

(١) فإن قيل: الخوف والخشية مترادفان، فلماذا غير بينهما؟ فالجواب: إن ذلك للبلاغة، ولمراعاة رؤوس الآيات.

﴿ يَنْبِيْ اِسْرَائِيْلَ قَدْ اَبْحَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوٰى ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ يَنْبِيْ اِسْرَائِيْلَ ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى به، بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم، وإفاضة فنون النعم الدينية والدينيوية عليهم أي قلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدْ اَبْحَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وقومه ﴿ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ ﴾ أي واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانبه الأيمن لمناجاة موسى، وإنزال التوراة عليه، وإنما نسبت المواعدة إليهم وهي لموسى، نظراً إلى سراية منافعها إليهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوٰى ﴾ وقلنا لهم .

﴿ كُلُوا مِّنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوٰى ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ كُلُوا مِّنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ وفي البدء بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدينيوية، من حسن النظم، ولطف الترتيب، ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حدَّ الله لكم فيه ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ ﴾ أي فيلزمكم عذابي، ويحلُّ عليكم سخطي ﴿ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوٰى ﴾ أي تردى وهلك وشقى الشقاء الدائم .

﴿ وَاِنِّيْ لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَاَمِنَ وَعَمِلَ صٰلِحًا ثُمَّ اِهْتَدٰى ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ وَاِنِّيْ لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ ﴾ من الشرك والطغيان ﴿ وَاَمِنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صٰلِحًا ﴾ أي عملاً مستقيماً موافقاً للشرع والعقل ﴿ ثُمَّ اِهْتَدٰى ﴾ أي استقام على الهدى، وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان، وحثُّ له على التوبة والإيمان، وإشارة إلى أن من لم يستقم على الهدى، فهو بمعزلٍ من الغفران، ويؤكد قوله تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾

والتوبة، والإيمان، والعملُ الصالح، قد يتفق لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة عليه.

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى من الكلام، عند ابتداء موافاته الميقات، بموجب المواعدة المذكورة أي وقلنا له: أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك؟ أي عن السبعين الذين اختارهم، وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء، لما في ذلك من إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم ولذلك أجاب عليه السلام، بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب، حيث قال:

﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي ﴾ يعني أنهم معي وخلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي وتعجلت إلى الموضوع الذي أمرتني به، لترضى عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، والعجلة مذمومة إلا أنها ممدوحة في الدين، قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل، من بعد ذهابك من بينهم، وهم الذين خلّفهم مع هارون عليه السلام ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ باتخاذ العجل، والدعاء إلى عبادته، وهو منسوب إلى قبيلة يقال لها السامرة، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف، وما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ أي شديد الغضب عليهم ﴿ أَسِفًا ﴾ أي حزينا بما فعلوا ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾ ؟ بأن يُعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ ؟ أي زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه ؟ ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؟ من مالك أمركم على الإطلاق ، ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ أي وعدي بالثبات على ما أمرتكم به ، إلى أن أرجع من الميقات .

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ أي ما أخلفنا وعدنا إياك ﴿ بِمَلِكِنَا ﴾ أي بإرادتنا واختيارنا بأن ملكنا أمورنا ، يعنون أننا لو حُلينا وأمورنا ، ولم يسؤل لنا السامريُّ ما سؤله لما أخلفناه ، فقد كنا مكرهين ، والمرء إذا وقع في فتنة لم يملك نفسه ﴿ وَلَكِنَّا حَمَلْنَا ﴾ اعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ﴿ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أي حُمَلنا أحمالاً من حُلِي القبط ، التي استعرتها منهم ، حين هممنا بالخروج من مصر ، وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ، ثم لم يردوها عند الخروج ، ولعل تسميتهم لها أوزاراً ، لأنها آثام وتبعات ، لأنهم كانوا في حكم المستأمنين ، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي ، على أن الغنائم لم تكن تحلُّ حينئذٍ ﴿ فَقَدَفْنَاهَا ﴾ أي في النار رجاء ، للخلاص عن ذنبها ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ أي ما كان منها معه ، روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت ، قال لهم السامري : إنما أخلف

موسى ميعادكم لما معكم من حلّي القوم، وهو حرام عليكم، فالرأى أن نحفر حفرة، ونسجر فيها ناراً، ونقذف كلّ ما معنا فيها ففعلوا.

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى

فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ .

﴿ فَأَخْرَجَ ﴾ أي السامري ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للقائلين ﴿ عِجْلًا ﴾ من تلك الحلّي المذابة ﴿ جَسَدًا ﴾ من ذهب لا روح له ﴿ لَهُ خُورٌ ﴾ أي صوت عجل، لأنه جعل فيه منافذ ومخاريق، بحيث إذا دخل فيه الريح، صوتت كصوت العجل ﴿ فَقَالُوا ﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ أي غفل عنه، وذهب يطلبه في الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها، لا من جهة القائلين، وإلا لقليل فأخرج لنا.

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ إنكار وتوبيخ، من جهته تعالى، لحال الضالين والمضلين جميعاً، فيما أقاموا عليه من المنكر، الذي لا يشبهه بطلانه على أحد، والفاء للعطف على مقدر، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أي كلاماً، ولا يردّ عليهم جواباً، فكيف يتوهمون أنه إله؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فإن قيل: كيف يعقل رجوع ستمائة ألف إنسان عن دين الحق دفعة، إلى عبادة العجل، الذي يُعرف فسادها بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع رجعوا برؤية موسى عليه السلام وحده؟ قلت: هذا غير ممتنع في حقّ البُله من الناس، وهؤلاء لا يعرفون الدين، وإنما أفكارهم وآمالهم منحصرة في المنفعة الدنيوية، فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً، والتقم كل ما جمعه السحرة، ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السحرة بأن

ذلك ليس بسحر، ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم انفلاق البحر، ثم أنجاهم الله من الغرق، وأهلك أعداءهم، ثم إن هؤلاء لما خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون البقر، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفتتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال: «اختلفنا عنه، وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر، حتى قلت لنيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» وذلك يدل على شكهم وضلالهم في الدين.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ جملة قسمية، مؤكدة لما قبلها من الإنكار، بيان عتوهم، واستعصائهم على الرسول، إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي وبالله لقد نصح هارون نبيهم، على كنه الأمر وحذرهم من ضلال السامري ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وقال لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي قال لهم يا قوم إنما ابتليتكم بالعجل وفتنكم به السامري، فألقى بكم في الفتنة لا الإرشاد ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لا العجل، فاقتدوا بي وأطيعوا أمري، إرشاد لهم على الحق، إثر زجرهم عن الباطل، والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ هذا وتركوا عبادة العجل، وإنما قال هارون عليه السلام ذلك، لأنه كان مأموراً بالنهي عن المنكر، فقابلوا هذه النصيحة بالسفه.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿عَاكِفِينَ﴾ أي مقيمين ملازمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ جعلوا رجوعه غاية لعكوفهم بطريق

التسوية، ولما قالوه اعتزلهم هارون مع الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال لل سبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون، أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله.

﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (٩٢).

﴿ قَالَ يَهْرُونَ ﴾ وهو مغتاظ ﴿ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٩٣).

﴿ أَلَا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي أي شيء منعك، حين رأيت ضلالهم، من أن تتبعني، في الغضب لله تعالى، ومقاتلة من كفر به؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾؟ بالصلابة في الدين، وبالقيام لمصالحهم.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (٩٤).

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ ﴾ خَصَّ الإِضَافَةَ بِالْأَمِّ، اسْتِعْطَافًا وَتَرْقِيقًا لِقَلْبِهِ، أَي يَا أَخِي وَيَا بَنِ أُمِّي ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ أي ولا بشعر رأسي، وكان موسى عليه السلام شديدًا، متصلبًا في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أي إني خفتُ إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم، فيسفكوا الدماء ويقتل بعضهم بعضاً وكما خشيت لو قاتلتُ بعضهم ببعض، وتفرَّقوا ﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أشعلت الفتنة بينهم، وأراد عليه السلام بالتفريق، ما يستتبعه القتال من التفريق بين صفوف بني إسرائيل، وتمزيق وحدتهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي وتقول: لم تنتظر أمري فيهم، يعني إني رأيتُ أن الإصلاح في حفظ الدماء، والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتدارك للأمر،

لا سيما وقد كانوا في القوة، ونحن على القلة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد، فلما فرغ من مخاطبة هارون، وعرف العذر، أقبل على السامري.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾ (٩٥).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾؟ أي ما مطلوبك مما فعلت؟ وما الذي حملك على ذلك؟ خاطبه بذلك، ليظهر للناس بطلان كيده، باعترافه.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ (٩٦).

﴿ قَالَ ﴾ أي السامري مجيباً له ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ القبضة: المرة من القبض، أي قبضت حفنة من التراب، من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار. وعامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول «جبريل» عليه السلام، وروي أنه كان رأى أن جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، إلى موسى، ليذهب به إلى الطور، وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجله، يخرج من تحته النبات، فعرف أن له شأنًا، فأخذ من موطئ قدم الفرس، حفنة من التراب ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي في الحلي المذابة، فكان ما كان ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي زينته وحسنته لي نفسي، فاتبعته هواي، لا لشيء آخر من البرهان العقلي، أو الإلهام الإلهي.

﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (٩٧).

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام للسامري ﴿ فَأَذْهَبَ ﴾ أي من بين الناس ﴿ فَرَبَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ ﴾ أي ثابت لك في الحياة ما عشت، عقوبة على ما فعلت ﴿ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ ﴾ أي لا يمسني أحد ولا أمسه، وذلك أنه تعالى، رماه بداء عقام، لا يكاد يمسُّ أحداً، أو يمسّه إلا حمً من ساعته، حمى شديدة، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس وحُرْم من المكالمة والمعاملة مع الناس، وصار أوحش من القاتل، ومن الوحش النافر ولعلَّ السر بتلك العقوبة، أنه لما أنشأ الفتنة، لجمع الناس عليها، وإبعادهم عن دين الله، عوقب بما يضاده، من العزلة عن الناس، وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام قال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً إلى البراري، وهذا أحسن وأقرب إلى النظم ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً ﴾ أي في الآخرة ﴿ لَنْ نُخَلِّفَهُ ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ أي دمت على عبادته مقيماً ﴿ لَنْحَرِّقْتَهُ ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ ﴾ أي لنذرينه رماداً ﴿ فِي الْيَوْمِ ﴾ أي في البحر كأنه هباء ﴿ نَسْفًا ﴾ بحيث لا يبقى منه عين، ولا أثر، ولقد فعل ذلك كلّه، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به، تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في الوعد، المؤكد باليمين، فلما فرغ عليه السلام من أمر العجل، رجع إلى بيان الدين الحق، فقال مخاطباً لنبى إسرائيل:

﴿ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ﴿ ٩٨ ﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ ﴾ المستحق للعبادة ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم وبه تم حديث موسى عليه السلام.

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ ﴿ ٩٩ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ إشارة إلى حديث موسى، أي مثل ذلك للاقتصاص البديع نقص عليك ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية، تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي كتاباً مذكراً، منطويّاً على هذه الأقايص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار، وتنكير ﴿ ذِكْرًا ﴾ للتفخيم.

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ .

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الذكر العظيم، المستتبع لسعادة الدارين، وأعرض عن الله عز وجل ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ أي عقوبة ثقيلة فادحة، على كفره وذنوبه، سماها ﴿ وِزْرًا ﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، بالحمل الذي يُفدح الحامل، وينقض ظهره.

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ أي خالدين في ذلك العذاب، بسبب الوزر الذي حملوه ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ أي بش لهم حملاً وزرهم.

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم يُنْفَخُ فِي الصُّور ﴿ زُرْقًا ﴾ أي حال كونهم زرق العيون وسود الوجوه، وإنما جعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العيون وأبغضها إلى العرب، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، وأزرق العين.

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ .

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة، لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أي ما لبثتم ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي عشر ليال في الدنيا، استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لَمَّا عاينوا الشدائد.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ﴿١٠٤﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿١٠٥﴾ .

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي يسألونك عن مآل أمرها يوم القيامة وقيل: لم يُسأل وتقديره: إن سألوك، ولذا قُرُن بالفاء ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٦﴾ .

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي يدعها ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٦﴾ مستوياً كأنها على صف واحد والقاع: المستوي من الأرض.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٠٧﴾ .

﴿لَا تَرَى فِيهَا﴾ أي في الأرض، والخطاب لكل أحد ﴿عِوَجًا﴾ أي اعوجاج ما ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي ارتفاعاً، والأمتُ المكان المرتفع، وقيل: النتوء اليسير.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ أي يتبع الناس الداعي إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس عند النفخة الثانية، ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، قومي إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه بل يستونون إليه ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ أي خضعت ﴿ الْأَصْوَاتُ ﴾ هيبة ﴿ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً والهمس: أخفى الصوت .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿١٠٩﴾ .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قول الشافع في شأنه، وأما ما عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فُرض صدورها عن الشفعاء فكأنه قال تعالى: لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً مرضياً .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِءِ عِلْمًا ﴾ ﴿١١٠﴾ .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِءِ عِلْمًا ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جلّ وعلا .

﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ﴿١١١﴾ .

﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ أي ذلّت وخضعت خضوع العناة - وهم الأسارى - في يد الملك القهار، وجوه الخلائق جميعاً للواحد القهار،

وقيل: وجوه الكفار، كقوله تعالى: ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: أي من أشرك، وقيل: على العموم.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان شرط في صحة الطاعات، والحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقص، وأصل الهضم: النقص والكسر، هضمه هضمًا كسره، وهضم حقه نقصه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن كله على هذه الوتيرة، وإضماره من غير سبق ذكره، للإيدان بنباهة شأنه وكونه مركزاً في العقول ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي اتعظاً واعتباراً، مؤدياً إلى الاتقاء.

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٨﴾ .

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ﴾ استعظام له تعالى، ولشؤونه التي يصرف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، أي ارتفع بذاته، وتنزه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿الْمَلِكِ﴾ النافذ أمره ونهيه،

الحقيق بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿الْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي يتم، وقد كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة، لكمال اعتناؤه بالتلقي والحفظ، فنهى عن ذلك، وأمر باستفاضة العلم، واستزادته منه تعالى، فقيل ﴿وَقُلْ﴾ أي في نفسك ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل الله عز وجل زيادة العلم، فإنه الموصل إلى طلبتك، دون الاستعجال عند تلاوة الوحي.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ كلام مستأنف لبيان أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقه راسخ في النسيان، والمعهود محذوف، يدل عليه ما بعده، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أمرناه ووصيناه، وأوحينا إليه، بأن لا يأكل من الشجرة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسَى﴾ أي نسي العهد، ولم يعتن به، حتى غفل عنه، أي فأنساه الشيطان ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي ثبات قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك، لما أزلّه الشيطان، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، من قبل أن يُجرب الأمور، وقيل: ﴿عَزْمًا﴾ أي على الذنب، فإنه أخطأ فيكون إلى المدح أقرب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾

﴿أَبْنَى﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبْنَى﴾ أي امتنع

وتكبر.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ

فَتَشْقَى﴾.

﴿ فقلنا ﴾ عقب ذلك، تحذيراً من كيد اللعين: ﴿ يَتَّادِمُ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي رأيت ما فعل ﴿ عَدُوُّكَ وَلِرْوَاجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ ﴾ أي لا يكون سبباً لإخراجكما ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿ فَتَشَقَّحْ ﴾ جواب للنهي، أي فتشقيان وإسناد الشقاء إليه خاصة، بعد تعليق الإخراج بهما معاً، لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه شقاءها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المراد بالشقاء: التعب في طلب المعاش، وذلك من وظائف الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾^(١) أي إن لك يا آدم في الجنة ألا ينالك ألم الجوع والعري، وألا يصيبك فيها العطش ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار الجور والسرور، وهو تعليقٌ لموجب النهي، فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، ونفي نقائصها، التي هي الجوع، والعطش، والعري، والضخو أي الإبراز للشمس، للتذكير بتلك الأمور الجليلة في الجنة، والبعد عن أنواع الشقوة، التي حدّره منها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها.

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَمْلِكِ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ .

(١) هذه الآية الكريمة من أظهر الدلائل، وأوضح الوجوه على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي «جنة الخلد» وليست جنة في الدنيا، فإن وصفها بعدم الجوع، والعطش، والعري وعدم حر الشمس، لا يكون إلا في جنة الخلد في السماء.

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ أي أنهى إليه وسوسته، أو أسرّها إليه ﴿ قَالَ ﴾ في وسوسته ﴿ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾؟ أي شجرة من أكل منها خُلد ولم يمت أصلاً ﴿ وَمَلِكٍ لَا يَبَلَى ﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه، فالذي رغب الله فيه آدم، رَغِبَهُ إبليس فيه.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١٧٧).

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا ﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما، حتى ظهرت عورتها ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أي أخذوا يلزقان الورق على سواتهما للتستر، ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فَغَوَى ﴾ أي ضلَّ عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان، والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا بزلة أبيكم التي أخرجته من الجنة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر قال ابن قتيبة: يجوز أن يُقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخطئ ثوبه يقال: خاط ثوبه، ولا يقال هو خياط، حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عنه عليه السلام إلا مرة واحدة، وإنما وقعت قبل النبوة، فلم يجز بعد أن قبِلَ الله توبته، وشرّفه الله تعالى بالنبوة هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر^(١).

﴿ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَآبَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١٧٧).

(١) هذا وجه بديع في التوجيه لمعصية آدم، وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» فقد وضحنا بالتفصيل المسألة، وبيننا الوجوه الشرعية في بحث «عصمة الأنبياء».

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة، وفي التعرض لعنوان الربوبية تشریف له ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبَلَ توبته حين تاب ﴿وَهَدَى﴾ أي وهده إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة.

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣).

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلّة: انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض أولادكم عدو لبعض في أمر المعاش والكسب، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والجمع لما أنهما أصل الذرية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة، فإن قيل: المتبع لهدي الله، قد يلحقه الشقاء في الدنيا؟ قلنا: المراد لا يضل في الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا مانع منه وفيه الأجر.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي أعرض عن الهدى والإيمان، واتباع الرسل الكرام ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً، وذلك لأنه تعالى يسلب عنه القناعة، والتوكل، فتكون همته مقصورة، على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، فعيشته ضنكٌ وحالته مظلمة، بخلاف المؤمن القانع، المتوكل، فإنه يعيش عيشاً طيباً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ الآية، ويوسع ببركة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ وَقِيلَ هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ أي أعمى البصر لأنه تعامى في الدنيا عن آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿١٢٥﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أي في الدنيا .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتِنَا فَنَسِينَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ۖ ﴾ ﴿١٢٦﴾ .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسره بقوله: ﴿ أَنْتَ أَيْتِنَا ۖ وَنَسِينَهَا ۖ ﴾ فعميت نيرة ﴿ فَنَسِينَهَا ۖ ﴾ فعميت عنها وتركتها ترك المنسي ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مثل ترك إيها ﴿ الْيَوْمَ نُنْسِي ۖ ﴾ تترك في العمى والعذاب جزاء وفاقاً .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۖ ﴾ ﴿١٢٧﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بانهماك في الشهوات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ ﴾ بل كذب بها وأعرض عنها ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ على الإطلاق ﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أي أشد من عذاب الدنيا، وأدوم لعدم انقطاعه .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهَلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۖ ﴾ ﴿١٢٨﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والمعنى: أفلم يبين لهم مآل

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦ .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أي كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ أي أهلكتناهم وهم في حال أمن وتقلب في مساكنهم وديارهم، أو حال كونهم ماشين في مساكنهم، إذا سافروا، مشاهدين لآثار هلاكهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يعتبروا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي إن في إهلاك هذه الأمم الباغية، وفي آثار دمارهم ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ كثيرة، عظيمة، واضحة ﴿ لِلأُولَىٰ النَّهَىٰ ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهي الوعد بتأخير عذاب هذه الأمة، لحكمة تقتضيه ﴿ لَكَانَ ﴾ عقاب جنایاتهم ﴿ لِزَامًا ﴾ أي لازماً لهم، بحيث لا يتأخر، والالزام مصدر لازم وصف به مبالغة ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي ولولا أجل مسمى لهلاكهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفصله عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب لولا، ولاستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب^(١).

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فاصبر على ما يقولون من الكفر، والتكذيب ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي صل وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمالك، على هدايته وتوفيقه ونزاهه عما ينسبونه إليه، مما يليق بشأنه الرفيع، معترفاً أنه مولى النعم كلها ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ أي ومن ساعاته، والمراد به

(١) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لازماً لهم لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخره لتعتدل رؤوس الآيات.

المغرب والعشاء، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أمر بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي سبح في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى، ما ترضى به نفسك، ويسر قلبك وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أمر الله تعالى عقيب الصبر بالتسبيح، لأن ذكر الله يفيد السلوّة والراحة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣٦﴾ .

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم ونعذبهم في الآخرة بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما أدخره لك في الآخرة، وما رزقك إياه في الدنيا، من النبوة والهدى ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه أجل، ومأمون الغائلة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿١٣٧﴾ .

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته بالصلاة بعد ما أمره بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ داوم عليها فإن الوعظ بالفعل، أبلغ من القول ﴿لَا تَسْأَلْكَ

رِزْقًا ﴿ أَي لا نكلفك أن ترزق أحداً ولا أن ترزق نفسك بل نحن نتكفل برزقك ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وأهلك، وفرغ بالك لأمر البعثة والآخرة ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلتَّقْوَى ﴾ أي لأهل التقوى وكان النبي ﷺ إذا أصاب أهله ضرراً، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية وليس في الآية رخصة في ترك التكسب، لأنه تعالى قال في وصف المتقين ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية، حكى عن شبهتهم، فكأنه من تمام قوله تعالى: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، أو بآية مما اقترحوها، بلغوا من المكابرة والعناد، إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات، التي تخر لها صمم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجتروا على التفوه بهذه العظيمة ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾؟ من أخبار الأمم، أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، عجلنا لهم العذاب، وهذا رد من جهته تعالى لمقاتلتهم، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أم الآيات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة، اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها، إذ هو أصل الأعمال، ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين، على يد أمي لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدرس أحداً أصلاً، فأبي معجزة بعد هذا القرآن؟ .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنُخزَىٰ ﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها، من كون القرآن بينة لا يمكن إنكارها، ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا ﴿بِعَذَابٍ﴾ مستأصل ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إتيان البينة أو من قبله ﷺ ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا رَسُولًا﴾ مع كتاب ﴿فَتَتَّبِعَ آيَاتِنَا﴾ التي جاءتنا ﴿مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ﴾ بنزول العذاب ﴿وَنُخْرِجَ﴾ بدخول النار اليوم، ولكننا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟ ليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد، والزجر للكفار، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه».
